محور بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية

مقومات صناعة إنسان الاستخلاف في فكر محمد الغزالي

بقلم

حباسي خالد*

ملخـــص

كان الغزالي من جملة العلماء والمثقفين الدينيين الذين يعتقدون أنه بإمكاننا في العصر الحديث إنتاج فهم جديد لما جاء به الوحي الإلهي، هذا الفهم الذي يعتبر نبعا ثرا جاريا، لا يعتري ساحته نضوب ولا يدركه توقف في زمن ما، فهو المدد المغذي لعنصر الإيمان، وهو المبدع للحداثة المرشد لها، والمتأمل في فكر الشيخ سيرى أنه اجتهد في مشروعه الفكري لإبراز دور إنسان الحضارة والاستخلاف من خلال إعادة الاعتبار لهذا الدور الذي غاب في عصور الاضمحلال والتخلف.

والمتأمل في تراثه أيضا سيرى ويدرك حقا أن مشروعه الفكري قد تضمن مقومات هامة لإعادة الاعتبار لدور الإنسان صاحب المهمة الاستخلافية في هذا الممر الموصل إلى دار المقر، وأنه ما بد من وجوب توفيرها لصناعة إنسان الاستخلاف، هذه المقومات التي يستطيع الإنسان الدارس والمتفحص لفكره أن يدرك أنها تتمحور على كثرتها في كتبه حول عناصر ثلاثة هي: إعداد الإنسان المتكامل، تفعيل العقيدة وإحياء الدور الاجتماعي للدين، ثم إعادة تشكيل العقل المسلم.

الكلمات المفتاحية: مقومات، الإنسان، الاستخلاف، الدين، الدور الاجتماعي، الغزالي، تشكيل العقل.

*- أستاذ محاضر أ، قسم أصول الدين، معهد العلوم الإسلامية، مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي. habkhaled@gmail.com .

تاريخ الإرسال: 2019/06/02 تاريخ القبول: 2019/06/28 – تاريخ النشر: مارس 2020

مقدمة

ما من ريب أن فكرنا الإسلامي قد تأخر تأخرا واضحا في العناية والاهتمام بالنزعة الإنسانية وصناعة إنسان الاستخلاف، كشفا عن خبيئها وإظهارا لها، وتمسكا بها وإعلاء لشأنها وكذا الحجاج والمجادلة والمنافحة عنها والمناضلة أمام مشكك ومنتقص وجاهل لقيمة هذه النزعة في الثقافة والفكر الإسلامي. وما نريد أن ننبه إليه هو تعامل المثقف المسلم مع هذه النزعة بوصفها بنية ثقافية ونسقا قيميا وأخلاقيا، ذات فعالية وتأثيرات اجتماعية وأدبية وسياسية تماثل ما برز في ثقافة أوربا الحديثة والمعاصرة.

ولو أردنا أن نستجلي ما هو موجود في فكرنا الإسلامي المعاصر من ناحية ثانية مما يعتبر في مرتبة من الأهمية والمكانة التي تضارع ما هو موجود في ثقافة أوروبا في الاهتمام بالإنسان ومركزه في الكون ومعالم بناء هذا الإنسان الذي يعتبر لحد الآن في تلك الثقافة ذلك المجهول كما ورد في كتاب الدكتور ألكسيس كاريل، لوجدنا أن مراعاة النزعة الإنسانية وتقديرها واعتبار الإنسان "سيد في الكون عبد لله" قد أخذت منحى بارزا في كتابات علماء النهضة الإسلامية، ولتبين لنا أن هذه الإصلاحية قد حققت إنجازات معتبرة في شتى المجالات متناولة معظم أبعاد الإنسان اجتماعيا وأخلاقيا، وأعادت لمفهوم الإنسان دوره البارز والفعال في صوغ الحكم الفقهي الذي يتوافق ومتطلبات عصر الحداثة، وضرورة مراعاة مستجدات الإنسان من خلال تجديد الوعي الإسلامي ثقافيا وفقهيا وإحياء قواعد "مقاصد الشريعة الإسلامية" ومحاولة تطويرها.

لقد أدرك هؤلاء المصلحون المفكرون واجب اللحظة حينما وقفوا على قدمين واستبصروا مآلات الإنسان المعاصر بعينين؛ عين على العصر وعين على التراث، فطوروا من الرؤية الشاطبية للكليات والحقوق الخمسة محققين علاقة انفتحوا بها مع الآخر، دونما انصهار في حضارته، ذلك أنهم أدركوا بوعي ثاقب أن التقدم ينسجم مع مقاصد الشريعة العامة، ومن ثم رأينا كيف بلور مشروع أحد هؤلاء القامات الفكرية الذي دعا فيه لتحقيق النزعة الإنسانية من خلال تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة الحقيقية لا الموهومة أو المكذوبة، فرأيناه يؤلف لتكريس هذه المعاني أول كتاب له "الإسلام والاستبداد السياسي"،

الذي أودع فيه عصارة فكر وذوب فؤاد مما كان يرى ويشاهد من امتهان السياسي لقيمة الإنسان، كما رأيناه قد ترجم لإطار اجتماعي وسياسي واقتصادي وأخلاقي من خلال البحث عن سر تأخر العرب والمسلمين، ونشدان التقدم الذي يتمناه لآخر أمة شاهدة على جميع الأمم، وذلك من خلال التركيز في هذا المشروع الفكري على مسائل منها: تحقيق مبدأ المواطنة للإنسان وتحقيق المساواة بين الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وألوانهم، وغرس الحريات ونشرها بين الناس كنفس يتنسم أرواحه المضطهدون في العالم العربي خاصة، ونفي الاستبداد الذي دمر البلاد وأيأس العباد وأهلك الحرث والنسل.

وأما عن الأهداف التي توخيناها من خلال كتابة هذا البحث فتتمثل فيما يلي:

- بيان آراء الغزالي وطروحاته التي بثها في كتبه، والتي اعتبرتها بحق جديرة بالإظهار والتعريف بها، حتى يستبين للآخر مدى ما يحمله الفكر الديني بين طياته –وبالطبع جملة من حملة هذا الفكر والخطاب– من تقدير الإنسانية والإعلاء من قدرها مهما كان صاحبها ومهما اختلف جنسه أو دينه أو عرقه إلخ ...
- إن المتأمل في فكر الشيخ الغزالي سيرى أن مشروعه الفكري قد تضمن مقومات هامة لإعادة الاعتبار لدور الإنسان صاحب المهمة الاستخلافية في هذا الممر الموصل إلى دار المقر، وأنه ما بد من وجوب توفيرها لصناعة إنسان الاستخلاف.
- إبراز دور إنسان الحضارة والاستخلاف من خلال إعادة الاعتبار لهذا الدور الذي غاب وسط متاهات شدت منا الأنظار والأفكار نحو الشكل وأبعدتنا عن القيمة والجوهر الحقيقي للإنسان.

دواعي الاهتمام بالموضوع:

في هذه المقالة سنقتصر على قضايا تتعلق بالشأن الإنساني والحضاري قد تكون واضحة في اللحظة الراهنة، لكنها لم تكن بمثل هذا الوضوح حين احتك العالم الإسلامي المتهالك والمتراجع منذ عصر الموحدين كما يذكر ابن نبي بالعالم الغربي الذي كان حينها يرتقي حثيثا على جميع الصعد العلمية والفكرية والسياسية والاقتصادية، والتي أحدثت انبهارا في ذهنية المسلم تركته يتشكك حتى في مسلماته ومنطلقاته الفكرية والدينية. هذه القضايا المتمثلة في بروز اهتمام واضح بالإنسان وحقوقه وحساسيته تجاه الواقع الاجتماعي، وكذا اهتمام واضح بمقومات صناعة الإنسان المؤهل لبناء الحضارة والتي انتقيناها من تراث الشيخ الغزالي،

والتي كان ينهزنا إلى ذكرها والحرص على أن ننبه إليها جملة أشياء منها:

1- مدى الفكر الناضج المستوعب للوافد الجديد والمعتز بالموروث الضخم من التراث الإسلامي، ومدى امتلاك الرجل قدرة نقدية يعرفك من خلالها في هدوء العالم المسطر والأديب المفكر بالنقائص والمثالب في المستجد الوافد من وراء البحار، وتلحظ بعقلية حصيفة في الوقت ذاته مدى التموجات والمد والجزر في تاريخ أمتنا، وكذا النجاحات والإخفاقات التي منينا بها في هذا التاريخ الطويل.

2- معالجته لقضايا ومعضلات حقيقية وليست موهومة بفكر يقرأ من خلاله اللحظة ويستشرف المستقبل، وهذا ينسحب على ميادين كثيرة في كتاباته من الاجتماعي إلى الأخلاقي إلى العقدي.

وأما عن الأدبيات السابقة فلم أطلع في حدود قراءاتي إلى من تعرض لشرح موضوع مقومات صناعة إنسان الاستخلاف في فكر وتراث الشيخ الغزالي رحمه الله، وإن كان هناك دراسات تناولت متغيرا واحدا من متغيرات الموضوع لكن بالنسبة لشخصيات أخرى، وذلك مثل كتاب مهم للدكتور عمر نقيب الذي تطرق فيه لدراسة مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي.

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفي، وبالموازاة كان لزاما علينا الاستعانة بالتحليل والنقد أثناء استقراء آراء الشيخ فيما يتعلق بهذا الموضوع المهم.

الفقيه والمثقف في العصر الحديث ـ التوصيف وتحديد الأدوار:

يجدر بنا أن نفرق بين هذين المصطلحين من خلال بيان وتعريف المرتكزات المعرفية لكل من الفصيلين: فصيل الفقهاء وفصيل ما اصطلح على تسميته ووسمه بالمثقفين، وقد قام من قبل بهذا التفريق الدكتور محمد يحيى في مقالاته وكتبه. ولا يعيبنا أن نعي ونفقه معنى الفقه وسمات ودور الفقهاء الذين يمثلونه من قديم وحتى عصرنا الحاضر، لذلك لا نعرج على تعريف الفقه والفقهاء، وإنما سنركز على السبب الوجيه الذي يحدونا -وبخاصة في عصر الانفجار المعرفي والضبط الصارم للمصطلحات- للتفرقة بين الفقيه والمثقف الديني ومرتكزات أصحابها.

أما الفقيه -ومعه سائر اختصاصيي النزعة البيانية- فإنه ليس من الصعب تحديد هويته

من الناحية الابستمولوجية. فهو يرتبط ارتباطا لزومياً بالنص، ولولا هذا الأخير ما كان للفقيه من وجود ولا اعتبار، إذ إن نشأة الفقيه وتحديد هويته كليهما مستمد من النص ذاته. وقد يكون الحال لدى جزء من المثقفين مختلفا نوعا ما، فمن حيث الأساس أن بناءهم المعرفي ليس ملزماً بالارتباط بالنص كالذي عليه عمل الفقيه، كما أن هويتهم المعرفية غير معلن عنها صراحة[1].

وعند البحث عن مخرج لطبيعة التأزم في جدلية العلاقة بين المثقف والفقيه، فالمخرج يتمثل في اقتراب المثقف من المعرفة التي يمثلها الفقيه، ومحاولة النظر إلى الفقيه بوصفه يمثل معرفة بحاجة إلى كسب وتواصل. وفي الجانب الآخر اقتراب الفقيه من المعرفة التي يمثلها المثقف، ومحاولة النظر إلى المثقف بوصفه يمثل معرفة بحاجة إلى كسب وتواصل. وما تفككت هذه العلاقة وانقطعت بين الجامع والجامعة إلا في أزمنة وعصور التراجع والجمود التي مرت على العالم الإسلامي، وكان من نتائج هذا الوضع تفكك وانقطاع العلاقة بين المثقف والفقيه، فبعد أن كان المثقف ينشأ ويتكون فقيها أو قريبا من الفقيه في ظل التقاء الجامع والجامعة، أصبح المثقف لاحقا ينتمي إلى مؤسسة تعليمية غير المؤسسة التي بات ينتمي إليها الفقيه، واختلفت وتباينت كذلك طبيعة المعرفة التي يكتسبها ويعرف بها المثقف والفقيه[2].

ومن خلال هذه التوطئة فإن مقصودنا بالمثقف الديني ابتداء هو ذلكم الإنسانُ الموسوم بسمة الثقافة والعصرنة والحداثة، فهو مثقفٌ وعصري حداثي، لكنه في الوقت نفسه، غير منقطع عن الدين والتدين؛ أي أنه ينتمي إلى مدرسة فكرية لها علاقة طبيعية واضحة، بل ومميَّزة، مع الحداثة ومع العقلانية، ويسعى أيضًا إلى علاقة إيمانية خاصة مع الباري جلَّ وعلا استنادًا إلى التجارب الروحية التي خاضها الأنبياءُ في حياتهم، من دون الخروج عن سننهم وبخاصة سنة خاتمهم الذي استجمعت في ذاته كمالات وهدايات من سبقه من الأنبياء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام «90»][3].

وهو يرفض كذلك أن يضحِّي بجانب على حساب الجانب الآخر: فمثلما أن لجانب الإيمان والتدين أهميةً في الحياة، كذلك فإن الجانب الحداثي والعقلاني لا يقل أهمية في نظره

عن الجانب الأول. هو شخص يعتقد أنه يمكن في زماننا الحديث إنتاج فهم جديد لما جاء به الوحي الإلهي، وأن ذلك الفهم «الكلام» بمثابة نبع جارٍ باستمرار، غير قابل للنضوب أو التوقف، يغذي الإيمان، ويخلق الحداثة ويرشدها[4].

وقد كان الغزالي –وهو ممن نحسب أنه وفق للجمع بين الفقه الديني والثقافة المعاصرة– حريصا على التذكير بوجوب تبحر علماء الإسلام في المعارف كلها، وأن تتضمن مناهج دراساتهم إلى جانب العلوم التقليدية الدراسة الموسعة للفلسفة في شتى عصورها، والتوسع في علم النفس والأخلاق والطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة، والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي والعالمي، ودراسة جغرافية العلم كله، وذلك لسببين رئيسيين:

- صقل الفكر والإعانة على تكوين الأحكام الصائبة، لأن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة.
- ولأن مع رحابة الفكر تكون رحابة الصدر، وإدراك وجهات النظر الأخرى، بغير تضخيم ولا تهوين، وينتهي الأمر حينئذ ألا يثور المرء إلا لأمور ذات بال من الأمهات والأصول[5].

صناعة إنسان الاستخلاف في فكر الشيخ محمد الغزالي:

يعتبر الغزالي أن نقطة الانطلاق لاستئناف حضارة إسلامية جديدة هي إعادة النظر في الإنسان؛ لأنه أهم مركب في عملية صنع الحضارات، إضافة إلى عاملي الزمن والتراب كما يذكر بن نبي في معادلته الحضارية المعروفة، ومنه فإن أهم العناصر التي تنضوي تحت هذا المحور والتي سنركز عليها في مشروع الغزالي وبخاصة فيما يتعلق بصناعة إنسان الاستخلاف إنما تكمن فيما يلي:

1ـ إعداد الإنسان المتكامل:

لو تأملنا كيفية تعاطي الشيخ مع الموضوع لوجدناه ينطلق من فكر سنني ثابت يضع أمامنا السنن التي تتحكم في حركة التاريخ الجديرة بصناعة التاريخ والتحكم في وجهته[6]، ولذلك فهو يعتبر أن نقطة البدء في صناعة التاريخ هي الإنسان ولكن أي إنسان؟ إنه الإنسان المتكامل المصبوغ بسمات العظمة وتكامل العقل والوجدان: "إن عظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاية وقوة. وذلك هو

المفهوم الممتد للإيمان الذي يعيد الإنسان إلى الله ويتقدم به روحياً بفضل هذا المركب الفذ الذي يجعل منه عقلاً وقلباً في الحين نفسه، ويوجهه إلى ضرب من الحياة الروحية "الصوفية" التي تطهر البدن وتزكي الروح، وفي الوقت نفسه يجعل منه ذا قدمين راسختين على أرض الواقع الزمني المعيش، وذلك في حالة فذة من "المصالحة" بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة".[7]

وتلك هي المزية الكبرى للتدين الإسلامي وفضائله النفسية والروحية التي تنحرف عنها الحضارة المادية الشهوانية أو تنكرها.

ولعل من خلال الإشارة إلى خاصية التكامل والتي كان قد ذكرها كذلك فيلسوف الحضارة بن نبي نجدها تتضمن خصائص أخرى مفقودة الآن في منهج التفكير لدى الإنسان المسلم مثل الشمولية والتوازن والموضوعية والواقعية، كما أن التأمل في هذه الخاصية يرشدنا إلى معاني جليلة تتضمن أساسيات البناء الحضاري.

إن نقطة البدء هي الإنسان. ولكن بالنظر إلى وضعية التخلف والتردي والرداءة التي يعيشها الإنسان المسلم باعتبار أن الشخصية الإسلامية المعاصرة ليست إلا نتاجا لتراكمات تاريخية امتدت على مدى قرون التوقف والانحطاط التي طالت العالم الإسلامي، فإن الأمر يقتضي إعادة صياغتها بالشكل الذي يضمن تأهيلها للوظيفة التاريخية المزدوجة، بناء المجتمع المتحضر وأداء الشهادة على الناس بالحق[8]، وهذا ما نستطيع أن نزعم أنه كان من أهم محاور المشروع الفكري الذي ناضل الغزالي من أجل ترسيخه في واقع أطلق عليه بن نبي عصر أو واقع ما بعد الموحدين في غربنا الإسلامي، والذي يعني ما يعنيه من حمولة معنوية تعبر عن حالة التأخر والتضعضع واللاتوازن وغياب الهدف في واقع الأمة التي بوئت مكانة الشهادة على الناس.

ومنه، فما خطه الغزالي وما كان يبدئ فيه ويعيد من خلال الدعوة إلى صياغة شخصية الإنسان المسلم من جديد قد جاء في إبانه، حينما كان يؤكد على أن متطلبات بناء الحضارة الراشدة الشاهدة التي تخلف ما هو موجود من حضارات نعايشها يجب أن تعنى باللب والجوهر لا بالقشر والمظهر، "إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا. بيد أنها ستبقي حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل، هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية

كثة؟ أم عقل ذكي وقلب أنقى، وخلق أزكى وفطرة أسلم وسيرة أحكم؟"[9].

والإنسان المتكامل في مشروع الغزالي هو ذلكم المرء الذي اكتملت وتكاملت عملية بنائه، إذ كل بعد من أبعاد شخصيته قد حظي باهتمام العملية التربوية بشكل متوازن ومتكامل. والسبب في سر هذا الاهتمام المتكامل أن الشخصية البشرية لا يمكن أن نتعامل معها تفاريق أو عضين، وإنما ككل متكامل وإن كل جزء منه لا يمكن أن يؤدي وظيفته بشكل طبيعي إلا إذا تمت الاستجابة لمطالب أجزاء الجسم المختلفة بالقدر الذي يمكنه من أدائها بشكل منسجم، كما أن هذا الأداء المنسجم للوظيفة إنما هو الأداء المتكامل للكينونة البشرية كإنسان وليس كجسم أو عقل أو روح، بل أولئك جميعا، كل متكامل يسمى الإنسان[10].

"فالإنسان جسم حي وعقل واع، وهو في جسمه يشبه صنوفا من الحيوان الأعجم، وفي عقله يشبه الجن والملائكة، وهما من عالم الغيب الذي يؤمن به المتدينون وحدهم. ومع شبهه المقرر بهذه أو تلك، فهو كائن متميز بخصائصه العليا والدنيا، وله وظيفة انفرد بها وارتبطت بأوصافه المادية والأدبية جميعا. ولا فكاك بين العناصر التي تكون منها الإنسان. فهو يكلف بجملة مواهبه. ويؤديها كذلك بكيانه كله. والعلاقة بين جسمه وروحه وعقله من الامتزاج والتعقيد بحيث يستحيل فصمها إلا بالموت."[11].

وبهذا البناء المتكامل والمتوازن للإنسان يتم إعداده للوظيفة التاريخية التي خلق من أجلها.

2ـ تفعيل العقيدة وإحياء الدور الاجتماعي للدين:

مما هو مدرك أن الاعتقاد هو التصديق بمفردات العقيدة تصديقا يشمل حقيقتها في ذاتها كما يشمل صلاحها للإنسان وخيريتها المطلقة لحياته، وللاعتقاد في حلوله بالنفس درجات يقوم وسطها خط فاصل بين نوعين منها: نوع يبقى الاعتقاد فيه حبيس الذهن، ولا يكون له سلطان على إرادة الفعل، ويمكن أن يسمى الاعتقاد الساكن، ونوع يقوى فيه الاعتقاد حتى يتعدى إلى الإرادة فيكون له سلطان عليها يحركها به لتنطلق في إنجاز الأعمال، ويمكن أن يسمى الاعتقاد الفاعل ...[12]

وقد كانت الأجيال الأولى من المسلمين تتنزل العقيدة في نفوسهم تنزلا مباشرا في

الدرجات التي تدفع إرادتهم إلى الأعمال، فما إن يتحمل الواحد منهم الإيمان بهذه العقيدة حتى يندفع مباشرة في العمل بما يقتضيه الواقع في شتى الوجوه: جهادا ونشرا للدعوة، أو إنشاء وتعميرا في الأرض، أو طلبا للعلم الديني والكوني، ولم يكن معهودا لدى تلك الأجيال ذلك الاعتقاد السكوني الذي يقصر عن تحريك الإرادة العاملة، فيجتمع الاعتقاد والقعود في الرجل الواحد في ذات الوقت[13]، وفيما قرأنا من تراث الشيخ الغزالي ما يؤكد المذكور آنفا حينما كان يقول: "... وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره، إن الإيمان أعظم الفضائل في هذا الوجود، وهو عنصر غال ما دخل في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

بيد أن الإيمان الذي يستحق هذه النعوت له نواح عديدة، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق.

ذلكم هو الإيمان الجدير بالإعظام وحسن المآب، وهو إيمان غلاب منتصر لا يثبت الإلحاد أمامه في معركة، ولا يقاس به في مفاضلة ... وجب أن ننصف الإسلام فنعلم أنه دين أعلى قدر الإنسان، ورفع شأن الحياة، لا بعبادتها والتفاني فيها كما يفعل الجهال، بل بضبط رسالة الإنسان فيها وحسن إفادته منها.

الإنسان –في تصوير الإسلام– عبد لله وحده، يعرفه ويتقيه .. سيد لهذا الكون يرتفقه، ويستخدمه، ويستغل قواه .. أخ لنظرائه من الناس يتعاون معهم على الخير، ويعاشرهم بقانون العدل والرحمة"[14].

ويؤكد الشيخ الغزالي على دور الدين وضرورة تمكينه من أجل أن يسترجع موقعه في حياة الإنسان المسلم ليستأنف وظيفته الاجتماعية وتوجيه ومراقبة وتقويم سلوك الإنسان بشقيه الفردي والاجتماعي، كما كان يصدح بأن أي محاولة لإصلاح أوضاع العالم الإسلامي الحضارية من غير إعادة الاعتبار للدين وتمكينه من تبوء موقعه الطبيعي كعامل توجيه وتقويم للسلوك البشري، وأداء وظيفته في الحياة الاجتماعية لا يعود إلا بالخسار والبوار[15].

ولا يتم ذلك إلا عبر مراعاة الطبيعة الفطرية للتدين عند الإنسان من جهة، وأن استقامة الحياة تتوقف في كل حالاتها على مدى مراعاتنا لهذه الحقيقة الكونية في الحياة البشرية من

جهة أخرى.

ويعتبر الغزالي أن هذا الشأن لا يكفي أن يتولاه أو أن يوكل إلى أفراد وجهود مربين هنا وهناك، بل هو واجب الدولة الأمينة على الرسالة الإسلامية، إذ أن عليها واجبات ثقيلة نحو الأمة التي تقوم على شؤونها، ونحو الأجيال الناشئة التي تقوم على تربيتها، ويمكن أن نعتبر من أهم هذه الواجبات واجب تجديد الدين علوما وتربية -تصورا وسلوكا-، وكان يعتبر أن من الوسائل العلمية لإقامة الدين على أصوله المستقرة وجوب تكوين تصور موحد صحيح لحقائق الدين وجوهره يعين على اطّراح الأعراف والتقاليد وسائر الخرافات والبدع التي تنافي تعاليمه؛ "لأنها تعبث بسلامة التفكير، مما ينعكس أثره بالتالي على تحديد مسلك الفرد وتصرفه، ويؤول بالضرر البالغ على المجتمع كله"[16].

وفي هذا المنحى فقد ألّف الغزالي جزءا مهما ومعتبرا من كتاباته لشرح هذه الأفكار، منها كتابه "ليس من الإسلام" والذي دعا فيه إلى نبذ البدع والخرافات، التي لا تمت إلى الإسلام وتعاليمه السمحة بصلة. ولا ريب أن الضلال في الفهم كالضلال في العمل من حيث المآل، إذ كلاهما سبيل إلى الانحراف عن الدين ومقاصده، فالضلال في الفهم سلاح فتاك، يقطّع أوصال الأمة ويفرّقها أشتاتا وطرائق قددا، ويشل طاقاتها، ويلقي بها -آخر الأمر- في مراعة التخلف بجميع صوره، نتيجة الوقوع فريسة سائغة لفساد التصور.

فمن نتائج فساد التصور الفساد في السلوك كما هو ملاحظ، وأجلى مظهر لفساد السلوك ما نراه من مظاهر السلبية والتواكل واللامبالاة، والإيمان بالجبرية التي تترك الفرد هملا مسلوب الإرادة أو مقهورها، وهو على النقيض مما تقتضيه الأصول الإسلامية المستقرة.

كذلك مما يسير في هذا المنحى الدعوة إلى محو الخصومة القائمة بين الفقهاء والصوفية؛ ذلك أن العناية بالتربية تتطلب ذلك، على أساس تجريد التصوف من البدع والخرافات التي التصقت به، ورده إلى كتاب الله وسنة رسوله ردا يدرب الناس على مقام الإحسان -أعني مراقبة الله ومشاهدته-.

"إن الإنسان لا يرقى بعقله أبدا، فكم من ذكيّ العقل غزير العلم، تراه خبيثا لا تؤمن أطماعه، وكم من منافق عليم اللسان. وأعرف أن عددا من المنتمين إلى التصوف دعيّ

لا ضمير له، غير أن هذا لا يزهدنا في تعهد القلوب بها في هذا العلم من حكم ثمينة وتجارب رفيعة"[17].

ومن المخاطر القاتلة أن التعليم الحديث اعتنى بتربية العقل وتثقيف اللسان، مع بعض السموم في التعليم، ولم نلحظ له عناية ملموسة بتغذية القلب وإشعال العاطفة الدينية وتقويم الأخلاق وتهذيب النفس، وبالتالي كانت الحصيلة أن نشأ جيل غير متوازن القوى، غير متناسب النشأة، وقد تضخمت وكبرت بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب البعض، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه وعقله وقلبه وعلمه وعقيدته مسافة شاسعة، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبير؛ فالأوّل ضخم كبير والثاني ضعيف ناعم، "إن الرقي العقلي المحض الذي بلغته الإنسانية يجعل مستقبلها على حافة الهاوية إن لم يقترن هذا الرقي العقلي باكتمال روحي معتمد على الله ورسوله"[18].

3ـ إعادة تشكيل العقل المسلم:

نظرا لما كان يدركه الغزالي من خطورة الوضع المرضي المتردي وآثاره على الوجود الإنساني والإسلامي ذاته، فإنه ما كان ليتوانى عن دعوة المسلمين وخاصة الأوساط المثقفة إلى ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم من أجل أن يتأهل مرة أخرى لأداء وظيفته في الحياة على أساس من المنهجية والموضوعية والشمولية والواقعية في النظر والتعاطي مع مختلف مشكلات الواقع فهما وتفسيرا وعلاجا.

كان الغزالي ينبه إلى أن أصل الأزمات هو الأزمة الثقافية، أي أن أي إخفاق يسحب بذيوله على أمة من الأمم في مسيرتها التاريخية هو تعبير عن أزمتها الثقافية، وهذا هو السبب الذي جعله يعتبر أن سر تأخر العرب والمسلمين يكمن في مجموعة من الأسباب نرى أنها تندرج تحت العنصر الثقافي الفكري، ومن ذلك نعيه على المسلمين تقصيرهم في الدراسات الكونية وعلوم الحياة، وكذا ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات في نظر كثير من المسلمين، وبالجملة فالسبب الأول من أسباب انهيار المسلمين الحضاري عند الغزالي يتمثل في الفساد الثقافي، وهو يرى أن عددا من الأمراض التي فتكت بالأمة إنما كان بسبب هذه الثقافة المغشوشة، التي كان لها الأثر العميق في التبلد السائد.

يقول: "وكل تربية تقاوم الفطرة وتشوه الأجهزة الإنسانية الأصلية فهي خصم للإسلام، وكل ثقافة تحجب البصيرة وتقوم على التجهيل بالكون والحياة فهي خصم

للإسلام، وقد وجد في أعصار شتى من ادعى العلم بالإسلام ومع ادعائه العريض أنشأ أجيالا منسحبة من الحياة، معصوبة العينين أمام آيات الله في الكون، معطوبة الخواص الدافعة إلى الرقي والتوسع والاكتشاف".[19]

ويذكر الغزالي المسلمين بعامة والقائمين على الشأن الثقافي بخاصة بأن ثقافتنا الإسلامية في طورها القائم تحمل مخلفات القرون الماضية، بما فيها من قوة وضعف واستقامة وعوج، وأخلاطا لا حصر لها من أفكار ومذاهب مفتقرة إلى التمحيص، وتفرض علينا ميز الخبيث من الطيب[20].

وبسبب رسوخ مشكلة العقل في الواقع الإسلامي ووقوفها حجر عثرة أمام أية محاولة للعمل الجاد والمثمر أثار الغزالي مشكلة التفكير باعتبار أن العقل المسلم أصبح عاجزا عن التفكير السليم الذي يربط بين الفكر والعمل، والعجز عن التعامل الإيجابي مع ما يواجهه من مشكلات وطرق علاجها.

ولذلك وجدناه لا يفتأ يكرر دعوته إلى ضرورة تربية العقل المسلم على الأصالة في التفكير، ولإعادة الاعتبار إلى العقل والتفكير في الأوساط الإسلامية فقد كان مما اقترحه على الأئمة والدعاة حينما كان مديرا للمساجد دراسة كتاب "التفكير فريضة إسلامية" للأستاذ عباس محمود العقاد الذي أهملته النخب الفكرية في البلاد العربية فضلا عن الإسلاميين وأبناء الصحوة.

ومع هذا التنويه بالتفكير والعقل وقيمته فإن الغزالي منوها كذلك بالروح يقرر من جهة أخرى بأن ثمة أمرين ينبغي أن يتم الجمع بينهما في حياة الإنسان المسلم: الاستنارة الفكرية، والهداية النفسية. أي أن يصحب هذا العقل قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح"[21]. ذلك أن الإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال.

وفي النهاية يؤكد رحمة الله عليه بأن عظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له، يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاية وقوة.

نتائج البحث:

- المتأمل في فكر الشيخ الغزالي سيرى أنه اجتهد في مشروعه الفكري لإبراز دور إنسان الحضارة والاستخلاف من خلال إعادة الاعتبار لهذا الدور الذي غاب في عصور الاضمحلال والتخلف.
- يعتبر الغزالي أن نقطة البدء في صناعة التاريخ وانطلاقته وفق معايير الحكمة والرشد والتوازن إنما يتم عبر صناعة الإنسان المتكامل المصبوغ بسمات العظمة وتكامل العقل والوجدان.
- ما كان الغزالي يبدئ فيه ويعيد من خلال الدعوة إلى صياغة شخصية الإنسان المسلم من جديد قد جاء في إبانه، حينما كان يؤكد على أن متطلبات بناء الحضارة الراشدة الشاهدة التي تخلف ما هو موجود من حضارات نعايشها يجب أن يعنى باللب والجوهر لا بالقشر والمظهر.
- يؤكد الغزالي أن العلاقة بين الجسم والروح والعقل هي من الامتزاج والتعقيد بحيث يستحيل فصمها إلا بالموت، وبهذا البناء المتكامل والمتوازن للإنسان يتم إعداده للوظيفة التاريخية التي خلق من أجلها.
- الإيمان الذي يستحق أن يضطلع به الإنسان للقيام بالخلافة الحقيقية له نواح عديدة، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق.
- يؤكد الشيخ الغزالي على دور الدين وضرورة تمكينه من أجل أن يسترجع موقعه في حياة الإنسان المسلم ليستأنف وظيفته الاجتماعية، وتوجيه ومراقبة وتقويم سلوك الإنسان بشقيه الفردي والاجتماعي.
- دعا الغزالي إلى ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم من أجل أن يتأهل مرة أخرى لأداء وظيفته في الحياة على أساس من المنهجية والموضوعية والشمولية والواقعية في النظر والتعاطي مع مختلف مشكلات الواقع فهما وتفسيرا وعلاجا.
- كان الغزالي ينبه إلى أن أصل الأزمات هو الأزمة الثقافية، وهذا هو السبب الذي جعله يعتبر أن سر تأخر العرب والمسلمين يكمن في مجموعة من الأسباب نرى

أنها تندرج تحت العنصر الثقافي الفكري، ومن ذلك نعيه على المسلمين تقصيرهم في الدراسات الكونية وعلوم الحياة، وكذا ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات في نظر كثير من المسلمين، وبالجملة فالسبب الأول من أسباب انهيار المسلمين الحضاري عند الغزالي يتمثل في الفساد الثقافي ولواحقه.

الهوامش:

1 – محمد يحيى، "مجتمعنا والبنى العقلية المؤثرة فيه"، http://fahmaldin.net/index.php?id=5، تاريخ التصفح: 20-05-2018..

2 – زكي الميلاد، محنة المثقف الديني مع العصر، إصدار المركز الثقافي الإسلامي، ط01، 1433ه-2012م، ص141-143.

3 – سعد الحاج بن جخد، المثقف الديني، شواهد ثورية في طريق المفهوم، الرابط: http://www.alquds.co.uk/?p=507850، تاريخ التصفح: 08-05-2018.

4 – المرجع نفسه.

[5] – يراجع الفصل القيم "خلال جامعة" من كتاب الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ، ص ص : 212-219. دار القلم: دمشق، ط04، 1421ه-2000م.

[6] – عمر نقيب، مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الجزائر: شركة الأصالة، ط2017،3، ص413-415.

[7] – الغزالي، محمد : الجانب العاطفي من الإسلام، ص104.

[8] – المصدر نفسه، ص415.

[9] – الغزالي، محمد: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، منشورات دار الكتب الجزائرية، ط8 بدون تاريخ، ص05.

[10] – نقيب، عمر، مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص416.

[11] – الغزالي، محمد ، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دمشق: دار القلم ، ط4، 1420ه-1999م، ص75.

[12] – النجار، عبد المجيد، مراجعات في الفكر الإسلامي، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط01، 2008، ص35.

[13] – المرجع نفسه، ص36.

[14] – الغزالي، محمد ا، عقيدة المسلم، دمشق: دار القلم، ط10، 1420ه-1999م، ص128.

[15] – يذكر الغزالي في معرض ما انتقد عليه من استعمال المصطلحات الغربية وتوظيفها في مشروعه الفكري أن الأستاذ مصطفى السباعي ندم على العنوان الذي اختاره لكتابه "الاشتراكية والإسلام"، قال: "وأنا أعلم سر ندمه؛ لأنني خضت مثله هذه المحنة .. لقد ظهر لنا أن الاشتراكيين العرب يريدون كلمة الاشتراكية وحدها، ولا يهتمون بعد ذلك للعقائد والعبادات التي هي لب الإسلام. وعندما كنا نبرز لهم من تعاليم الإسلام ما يغني عن المبادئ والتطبيقات التي سحرتهم من ثقافة الغرب والشرق، كانوا يأخذون هذا البدل المعروض، ويجردونه من صبغته الإسلامية، ثم يمضون في طريقهم دون إسلام أو آخرة أو خشية أو خلق ... ومن هنا وضع الله الشؤم في سياستهم الاقتصادية، فما دسوا أصابعهم في خضراء إلا جفّت، ولا دخلوا بلدا إلا ثعق بين أيديهم البوم، وعم القشف الأسر والأفراد ... إنهم كما قيل: أفقروا الأغنياء ولم يغنوا الفقراء، وتلك حدود اشتراكيتهم ، ومبعث كراهية الجماهير لها ...". انظر: محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص108-109.

[16] – الدريني، فتحي، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1407 هـ-1987 م، ص255.

[17] – الغزالي، محمد، عقيدة المسلم، مرجع سابق، ص 86 .

[18] – الغزالي، محمد، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، ص23 .

[19] – الغزالي، محمد، الإسلام والطاقات المعطلة، ص96.

[20] – المرجع نفسه، ص96.

[21] – الغزالي، محمد: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مرجع سابق، ص101.

Components of the construction of Human Succession in the Thought of Mohammed al-Ghazali

Habassi khaled
Institute of Islamic Sciences - University of Eloued – Algeria

Abstract:

Al-Ghazali was amongst the religious scholars and intellectuals who has great faith that in modern times we can create a new understanding depending on the godlike revelation. This understanding is considered to be an ongoing and constant source of knowledge. It is the period that nourishes faith component. The person who is so contemplative in Sheikh's thought will see that he worked firmly in his intellectual project to highpoint the role of human civilization and succession through the rehabilitation of this role, which was absent in the ages of decay and backwardness.

The person who is contemplated in his legacy will also see and realize that his intellectual project has encompassed imperative components to restore the man's role with the task of succession in such path that leads to the hereafter, these components must be provided to the human apprehension, who really studies and scrutinizes deeply his ideas will understand that there are there elements at the heart of his several books are: the preparation of the integrated human, activation of the doctrine and revive the social role of religion, and then the restructuration of Muslim mind.

Key words: components, human, intelligence, religion, social role, Ghazali, mind restructuration.